الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

حسن بن محمد بيارا*

Holy Quran is the revealed word of Almighty Allah (SWT) to His last Holy Prophet Muhammad (S.A.W). Allah revealed his message on the Arabs in their language, Arabic so that they may understand this heavenly message. No other language possesses the quality of eloquence and rhetoric like it. In the Quran Allah (S.W.T) said, " Verily, we have sent it down as an Arabic Quran in order that you may understand". (Al-Yusuf, Verse 2) For the other reason, in another chapter, further He said, " So, We have made this (the Quran) easy in your own tongue (O Muhammad S.A.W), only that you may give glad tidings to the *Muttaqun* and warn with it argumentative people." There are thousands of books in the world that are referred to God or His messengers and some of them to their followers. The world of full of artistic, linguistic, literary books but there no book that can be claimed to be comparable this miraculous book, Holy Quran. This is the only book that is in the same state as it was on the first day. Scholar, poets, orators from all over the world including Arabs failed to produce, even a verse, a work of similar beauty and elegance. No one did then and no one has done so ever since. Allah (SWT) said "Say: if mankind and the jinn were together to produce the like of this Quran, they could not produce the like thereof, even if they helped one another." (Chapter 17, verse 88) In this topic I have tried to explain the uniqueness of eloquence and elegance of The Holy Quran so that critics of the holy Book may understand it.

الحمد لله الذي أنزل القرآن حجة وبرهانا وأودعه أسرار العلوم إدراكا وعرفانا وخص لفظه ببراعة النظم والنثر عنوانا ورصع كلمه بالإعجاز تركيبا وتبيانا والصلاة والسلام على رسوله إكراما وإعظاما ، وعلى آله ومن صحبه طاعة وإيمانا

قال الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل : {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} (سورة الرعد :31) .

المعجزة الخالدة :

القرآن الكريم معجزة الله الخالدة وهي منظومة وحيه التليدة وهو الأمانة العظمى على عواتق البرية ، وهو البرهان الساطع الذي يتلألأ نورا وضياءا في أرجاء المعمورة ، فهو كما قال

* قسم اللغة العربية, جامعة كراتشي

جل شأنه :{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } (سورة الشعراء: 192 - 194) .

وكون القرآن معجزة أمر لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان وأما حيثيات الإعجاز وأوجه الإبهار فهي متعددة ومتشعبة ،ويمكن القول بأن القرآن معجزة سائر العلوم والفنون في جميع العصور والأزمان لكافة الخلق أجمعين ، فما من علم أو فن وإلا تطرق إليه القرآن عبارة أو إشارة ، نظما أو نسقا ، ظاهرا أو مضمرا .

وأهل الديانات المعاصرة للقرآن تنظر فيه وتقرؤه وتتعرض له وتثير حوله الأسئلة ومع جميع أنواع المحاولات الدراسية والتحقيقية والبحثية والتدقيقية مهما كان معتقد صاحبها فإنه يعترف في آخر المطاف بإعجاز القرآن وكونه ليس من صنع البشر وأنه كلام يختلف تمام الاختلاف عن كلام البشر عامة ، وعلى هذا درجت شهادات سامعيه من قديم الزمان فهذا أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة المخزومي سيد قريش ومن كبار شخصياتها حين كلفته قريش بأن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته وما أتى به من القرآن وأن ينظر في حقيقة الكلام الذي يتلوه فكان من جوابه : فوالله ما منكم رجل أعرف بالاشعار مني، ولا أعلم برجزه ولابقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته(1).

ومن جوابه أيضا : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر (2).

وهذه الدعوى الباطلة التي أثارتها مشركوا مكة قد أنزلها الله في كتابه ودحضها وبينها ، فقال عز من قائل: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} (سورة الطور :30). والشئ ذاته أثبته القرآن وأصر عليه، قال تعالى : {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} (سورة الحاقة: 41-42).

ومن المعلوم أن الله تعالى خاطب كل قوم بلسانهم ولغتهم وأرسل لهم أنبياء من بني جلدتهم ذوي حسب ونسب فيهم يكلمونهم بنفس اللغة الرائجة فيهم فيعونه ويفهمونه ولا ينكرون عليه ولا يختلفون ، قال تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (سورة إبراهيم 4). و في جواب

طلب الكفار أن يكون الرسول المرسل إليهم من الملائكة السماوية ولا يكون بشرا من بني جلدتهم ،قال تعالى : {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} (سورة الأنعام :9).

والرسالات السماوية قائمة على أساس التبليغ عن الله فالرسول الموحي إليه نائب عن الله في تبليغ الرسالة ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، بمعنى آخر أن الرسول المبعوث من الله هو الأسوة الحسنة والقدوة المثلى لقومه وبني شعبه ، يخبرهم عن الله تعالى ويتلو عيهم آياته وأحكامه ويبشرهم وينذرهم.

وحيث أن الرسالة نيابة عن الله وأن الله يخاطب رسوله البشري وحامل كلامه وخطابه هو جبريل الأمين الرسول الملائكي فجبريل واسطة بين الله والرسول المبعوث والله تعالى لايخاطب عبيده مباشرة إلا من ارتضى من رسول ، فتوصلنا إلى نتيجة حتمية وهي أن الرسول إنما يخاطب قومه وبني جلدته بما يأمره به ربه وبما ينزل عليه من الوحي وهذا الخطاب من الرسول لا بد أن يتسم بأجود أنواع البلاغة والفصاحة لا سيما وهو كلام رب البرية ونيابة عن ديان السماوات والأرض وواسطة بين الله والبشرية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه (3).

وقد تناول القرآن الكريم هذا الموضوع على نمط بياني بديع وأوضح أن ما أنزله الله تعالى على رسوله من ا لوحي والكتاب إنما أنزله باللغة العربية وأنه يتصف بالمبين ، قال تعالى : {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (سورة يوسف :2).

وقال تعالى : {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا} (سورة مريم:97) وقال تعالى :{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ } (سورة الشعراء 193-195).

فكون الوحي نزل باللغة العربية مشهود له بالقرآن الكريم ويا له من شاهد حق.

وأما كون اللغة العربية هي أم اللغات وأفصحها وأجمعها وأبلغها وأحسنها لا يحتاج إلى دليل لأنه أوضح من الشمس في رابعة النهار .

أبلغ كلام على وجه المعمورة :

وكون القرآن أبلغ كلام منتظم على وجه الإطلاق مما عرفته البشرية فإنه يرجع إلى أصول ومبادئ وضوابط حددها علماء اللغة والتفسير والأصول وذكروا لها أوجها ودلالات وأنماطا

وأساليب أدبية لا توجد في كلام البشر إطلاقا وهذا مما يجعل القرآن معجزا لا يمكن للخلق أجمعين أن يأتوا بمثله ، قال تعالى : {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} (سورة الإسراء :88).

الأنماط البلاغية في القرآن الكريم :

الأنماط البلاغية في القرآن الكريم متعددة بتعدد الآيات والسور والمقاطع والجمل والقصار والمفصل ، والأحزاب والمثل ، وأنماط البلاغة التي عرفتها الأمة العربية قد أتى عليها القرآن جميعها بل زاد عليها ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

المنطوق والمفهوم ، الحقيقة والمجاز ، التشبيه والاستعارة ، الحصر والاختصاص ، الإطناب والإيجاز وفي هذا الباب أنواع كثيرة فرعية ، الخبر والإنشاء وله أيضا أقسام كثيرة ، البدائع القرآنية وإجمال أنواع البدائع تربوا على خمسين نوعا (4).

ماالمقصود بإعجاز القرآن الكريم ؟

يحتفل العالم بوجود ملايين الكتب قديمة وحديثة منها ما تنسب إلى الله ومنها ما تنسب إلى الأنبياء ومنها ما تنسب إلى أتباع الأنبياء وتلاميذهم ومنها كتب لعباقرة الفنون وأئمة العلوم ومنها كتب عامة إلا أنه لا يوجد أي كتاب في تاريخ البشرية سعى أحد من الناس إلى دعوى أنه معجز لا يمكن للبشر أن يأتي بمثله سوى كتاب واحد اسمه القرآن الكريم فإنه منذ نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم يتحدى العالم أن يقوم أحد بالإتيان بمثله كله أو بعضه سورة أو آية منه ، وهذا التحدي يظهر للعالم مدى مصداقية هذا الكتاب وكونه ليس من كلام البشر الذي يؤلفونه ويضعونه ويستعملونه في آداء المعاني المتعلقة في أذهانهم من طلب أو خبر وغير ذلك ، وكون القرآن بهذه المثابة من المتانة اللغوية والقوة الأدبية والصلابة البلاغية والمتانة البيانية بحيث يعجز العالمين عن الإتيان بمثله أو بمثل جزء منه أوسورة أو آية منه فإن هذا هو الإعجاز الذي يجعل من القرآن كلاما ناصعا ممتازا عن غيره من كلام البشر ، وهذا هو الدليل على حقانيته وصحة نسبته إلى الله تعالى.

أما اليوم فقد أتى على القرآن قرونا متطاولة ومضى على نزوله الأول أزمنة مديدة وأعوام مديدة مع أن المخالفين له والمنكرين عنه والمعرضين عنه كثير جدا لا يمكن حصرهم ولا جمعهم إلا أن القرآن لا يزال شامخا كالطود العظيم يتلألأ نورا وضياءا غض طري اليوم كما

أنزل بلا تغيير أو تبديل أو تقديم أو تأخير أو حذف أو زيادة ومع كل هذه التغييرات الزمنية وتطور العلوم والتكنولوجيا إلا أن العالمين لا يزالون يعجزون عن الإتيان بمثله .

ناهيك عن العرب الذين يضرب بهم المثل في الفصاحة والبلاغة وحسن القريحة وطلاقة اللسان وسرعة البديهة وكثرة الدهاء إلا أنهم لم يأتوا بمثله.

وهو مصداق قوله تعالى : {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} (سورة الإسراء :88).

أوجه إعجاز القرآن الكريم :

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع المتضلعة والتفصيلية المتعلقة بمباحث علوم القرآن وهي من المواضيع التي تصدى لها علماء المسلمين منذ قديم الزمان وأفردوا لها مؤلفات وهي كثيرة ، كما أن علماء التفسير لهم نصيب كبير في هذا الميدان وبخاصة العلماء الذين كتبوا تفاسير لغوية أو اهتموا ببيان الجوانب الأدبية والبلاغية والبيانية في القرآن ا لكريم ، وقد أجمع علماء اللغة أن القرآن حجة على اللغة وليست اللغة حجة على القرآن .

إن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة ومتعددة لا يمكن حصرها ولا إدراكها ولا جمعها لكن كل مؤلف ومصنف يحاول جمع ما توصل إليه علمه وشمله فهمه وأدركه بصيرته وكل يدلي بدلوه فالمتضلع من العلماء في اللغة له باع ويد طولى في هذا الميدان ، إلا أن مجمل تلك الأوجه يمكن تصنيفها كالآتي :

1- إعجاز النظم القرآني .
2- ما احتوى عليه النظم من المعاني والدلالات وما تطرق إليه من المواضيع .
3- عموم ما يتعلق بالقرآن ،كالزمان ، والمكان ، نزوله ،ونازله ، ومن نزل عليه ، حالة من نزل عليه ، الأثر الإيقاعي للنظم على النفوس ، الرقية به ، وقوع المغيبات التي أخبر بها القرآن ، تضمنه لأسماء شخصيات شهيرة ماضية عبر القرون السالفة ، حفاظ القرآن ، الاعتناء بالقرآن ، تفاسيره ، وغير ذلك من المتعلقات .

وما نحن بصدده هو القسم الأول وهو : إعجاز النظم القرآني .

النظم القرآني المركب من المفردات العربية المعهودة قد بلغ من الإعجاز والإبهار مكانة سامية لا يرقى إليها أي كلام على وجه المعمورة سواء أكان هذا الكلام أقدم من القرآن تأليفا ووضعا أو نزولا وسوا ء أكان بعده ، بل إن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أيضا نوع من الوحي لا يرتقي إلى درجة القرآن في إعجازه وبلاغته وفصاحته وإبهاره وإن كان فاق كلام عامة الأدباء والمتخصصين من أهل الفن نظما ونثرا وتأليفا وتركيبا .

فنظم القرآن من حيث تركيبه واختيار المفردات واصطفاء الألفاظ يختلف تمام الاختلاف عن الكلام العربي العام نظما ونثرا ، وإيقاعا وتأثيرا ، فيمكنك أن تصف الآية القرآنية بأنها منظومة وفي نفس الوقت لك أن تقول بأنها من أجود أنواع النثر لاسترساله .

مراحل الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم :

إن إعجاز ا لقرآن البلاغي واللغوي يمر بعدة مراحل من أبرزها :

إعجاز المفردات : وذلك بإيراد الألفاظ المفردة المناسبة للمعنى ا لمراد وحسب المقام والموقع، وإحداث تغيير في المفردات في سياق مشابه لتغيير المعنى والمراد للدلالة على التكيف مع الوضع والتكيف مع العقل البشري في آن واحد ورعاية الأمة المستهدفة بالخطاب آنذاك وكيفية استجابة عقولهم واستقبال أسماعهم لوقع تلك الكلمات التي اعتبروها مألوفة بل لها تأثير إيجابي في النفوس يجلبها ويشدها لاستماعه والإصغاء إليه .

إعجاز النظم : وذلك ببراعة تراكيبه ومستعملا جميع الأنماط البلاغية وأقسام البديع وأطوار البيان ، فكل كلمة منه تقع موقعا عظيما وتحل محلا كريما مناسبا ومتكافئا ، فلو أزيلت من نظمه لفظة أو كلمة ثم بحثت عن مثيلتها في سائر دواوين اللغة العربية لم تجد كلمة متقاربة لها فضلا عن مثيلتها.

إعجاز الدلالة : وذلك بأن كل كلمة أو لفظة سيقت لمعنى خاص أو أداء مقصد فإن دلالتها عليه ثابتة بشتى الطرق وعدد من الوجوه ، لا يمكن لأي كلمة أخرى أن تؤدي نفس الوظيفة الدلالية .

علما بأن لفظ القرآن وإن احتمل معاني عديدة فإن اللفظ المنظوم يدل على ما سيق له وما يحتمله بلا تفريق مع وجود أسباب ترجح المعنى المتبادر إلى الأذهان عند سماع اللفظ

لأول وهلة ، فاللفظ والنظم والدلالة تمشى على قدم وساق في أداء الغرض وإكمال الهدف المنشود .

نماذج من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم :

وقد أطنب الإمامان الجليلان بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، والإمام جلال الدين السيوطي في كتابيهما الجليلين :البرهان والإتقان (1) في سرد أنواع أوجه البلاغة والبيان والبديع في القرآن الكريم مع ذكر الأمثلة الكثيرة والمتعددة ، ومن جملة ذلك :

1- التوكيد: وهوتكرار اللفظ وإعادته مرة أخرى لتقريرمعنى اللفظ الأول ،وهذا التكرار إما يكون تكرار اللفظ أو مرادف اللفظ ، مثال تكرار اللفظ : {قَوَارِيرَا. قَوَارِيرَ}(سورة الإنسان : 16.15) ومثال تكرار المرادف قوله تعالى : {فِجَاجاً سُبُلاً}(سورة الأنبياء:31) وقوله تعالى :{ضَيِّقاً حَرِجاً}(سورة الأنعام :125). في قراءة كسر الراء {وَغَرَابِيبُ سُودٌ} (سورة فاطر :27).

واللفظي يكون في الاسم النكرة بالإجماع كما مر ، ويكون في اسم الفعل ، نحو قوله تعالى: {هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ} (سورة المؤمنون :36). وهو هيهات الثانية ، ويكون التوكيد في الجملة ، نحو قوله تعالى : {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً}(سورة الإنشراح : 5،6)، فالجملة الثانية تأكيد للجملة الأولى .

ويكون في الضمير المجرور كقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا}(سورة هود :108). والأكثر فيه اتصاله بالمذكور من الإسم الظاهر.

2- الصفة : وهي التي تقابل الموصوف في علم النحو ، وتأتي الصفة صفة للنكرة فتفيد التخصيص ، وقد تكون موضحة للمعرفة ، ولورودها أسباب عدة ، منها : المدح والثناء ، كقوله تعالى : {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} (سورة النمل: 30)، فهذه الصفات المذكورة لله تعالى ليس المراد بها التمييز عن الغير أو تخصيصه بها إذ أن الله تعالى لا مثيل له ولا كفؤ حتى نضطر إلى توضيح صفته عن غيره وزيادة البيان ، وتعيين الجنس وغيرها .

علما بأن الصفة العامة لا تأتي بعد الصفة الخاصة ، وكذلك لا ترد للتقييد بل تكون لازمة، وقد يراد بالصفة تغيير المراد بها ، وتكون للتنبيه على التعميم.

3- البدل : ويقصد به إيضاح الإبهام الموجود في العبارة فيقع بيانا أو تأكيدا ،وهو على ثلاثة أنواع : بدل الكل من الكل ويسمي ببدل المطابقة ، وبدل البعض من الكل ويسمى بدل التضمن ، وبدل البعض (الالتزام) ويسمى بدل الاشتمال.

مثال بدل الكل ، قوله تعالى : {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ}(سورة الشورى : 52 ،53) ، فالصراط الثاني بدل كل من الصرا ط الأول ، وذلك أنه يصح السكوت عليه وهو يدل تمام الدلالة على المعنى ا لمراد ، فأتى البدل هنا ليفيد معنى التأكيد .

ومثال بدل البعض (التضمن)،قوله تعالى : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً } (سورة آل عمران : 97). فقد وقعت كلمة (الناس) عامة وكلمة ،وقد تضمنت هذه الكلمة أنواعا عدة منها المستطيع وغير المستطيع (من) جاءت لتخصص من الناس وتشير إلى نوع خاص وهو المستطيع.

ومثال بدل البعض (الاشتمال)، قوله تعالى: {كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} (سورة العلق: 15،16) . فالناصية الأولى نصت على مكان السفع والناصية الثانية ذكرت علة السفع، ليشتمل كل ناصية بهذه الصفة .

4-عطف البيان : ويأتي للإيضاح وإزالة الاشتراك الموجود في اللفظ ،كقوله تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ } (سورة آل عمران :97) . فالجملة الثانية عطف بيان للجملة الأولى .

5- ذكرا لخاص بعد العام ، ويأتي للتنبيه ، ودلالة التغاير في الذات ،كقوله تعالى : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } (سورة العلق :1، 2). فقوله (خلق) الأول عم جميع مخلوقاته ، و(خلق) الثاني خص الإنسان من بين خلقه للتنبيه على كونه أفضل المخلوقات .

6- ذكر العام بعد الخاص ، ويأتي للتنبيه ، ودلالة التغاير ،كقوله تعالى :{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} (سورة الحجر :87). فذكرالقرآن وهو عام بعد السبع المثاني وهو خاص .

7- عطف المترادفين على الآخر أوما هو قريب من الترادف ، ويأتي للتأكيد ولا يكون إلا باختلاف اللفظ وفي الجمل ، كقوله تعالى : {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} (سورة المدثر:22) . وقوله تعالى :{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ }(سورة يوسف : 86).

8- وضع الظاهر موضع المضمر ،ويأتي لزيادة التقرير والإثبات ،كقوله تعالى : {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ .....وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (سورة التوبة:61). قال أولا : والذين يؤذون النبي ثم عاد فقال والذين يؤذون رسول الله ولم يقل يؤذونه لزيادة التقرير مع أن في عود الضمير تعظيم .

9- ذكر المثنى وإرادة الواحد ، كقوله تعالى : {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} (سورة الرحمن :22). وهما إنما يخرجان من أحدهما لامن كليهما .

10- ذكر الجمع وإرادة الواحد ، كقوله تعالى :{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} (سورة المؤمنون :51). جاء الخطاب بلفظ الجمع والمراد منه واحد وهو نبينا صلى الله عليه وسلم .

11- ذكر التثنية وإرادة الجمع ، كقوله تعالى :{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ } (سورة الملك: 4) . ليس المقصود هنا التثنية بالعدد وإنما المقصود الكثرة وإعادة النظر بعد النظر ، والبصر لا يحسر إلا بالجمع والتكرار الكثير .

12- التكرار لإرادة التأكيد وزيادة التقرير ، كقوله تعالى : {أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} (سورة القيامة : 35،34) . فتكرار كلمة أولى هنا للدلالة على التأكيد . وللتكرار فوائد أخرى كثيرة (5).

13- الزيادة في بنية الكلمة ، المقصود منه زيادة المعنى ، كقوله تعالى : {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} (سورة القمر:42). وقوله : {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } (سورة مريم: 65). وقوله : {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} (سورة فاطر :37). فكل من كلمة (مقتدر) و(اصطبر) و(يصطرخون) فيها زيادات من أصول الكلمة ،فكلمة (مقتدر) أصل اسم فاعلها قادر ، و(اصطبر) أصلها اصبر ، و(يصطرخون) أصلها يصرخون ، وإنما زيدت في أصولها للدلالة على زيادة المعنى.

14- التفسير ، وهو أن تكون الجملة التالية تفسيرا للسابقة ،كقوله تعالى : {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } (سورة المعارج : 19-21). فقوله : إذا مسه الأول والثاني وقع تفسيرا لقوله هلوعا .

15- خروج اللفظ مخرج الغالب ، كقوله تعالى : {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } (سورة الإسراء:31). فقوله خشية إملاق ، خرج مخرج الغالب والأصل منع قتل الأولاد سواء أكان خشية إملاق أو خشية أمر آخر غيره .

16- القسم ، وهو الحلف ، ويأتي لزيادة تأكيد الخبر ، وقد ورد القسم في القرآن بربوبية الله وبغيره من المخلوقات ، قال تعالى وهو يقسم بربوبيته : {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ} (سورة الحجر: 92). وقال تعالى وهو يقسم بغيره من المخلوقات التين والزيتون : {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} (سورة التين: 1) .

17- تعليق شئ بحدوث أمر مستحيل ،كقوله تعالى : {وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } (سورة الأعراف:40). فعلق الله تعالى دخول الكفار الجنة بأمر مستحيل لا يمكن وقوعه أبدا وهو ولوج الجمل في سم الخياط ، فدل على أن دخول الكفار الجنة أمر مستحيل مثل ولوج الجمل في سم الخياط .

18- الاستثناء والاستدراك ، والاستثناء : هو إخراج شئ من حكم عام كان داخلا فيه ، والاستدراك إدخال شئ أو إضافة معنى حكم سابق مضى ، وفي كليهما معنى التأكيد والتكرار ، قال تعالى : {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} (سورة الحجر: 30 -31) . فذكر الله سجدة الملائكة لآدم عليه السلام بلفظ عام يشمل جميع الملائكة وكان إبليس داخلا في الحكم ثم استثنى الله إبليس من الحكم وفي هذا تعظيم لعصيان إبليس وكبيرته وجريرته فقد خرق الإجماع وخالف الجماعة ، وهذا زيادة معنى على مجرد نفي السجود والإخبار عن إنكاره للسجود .

19- المبالغة ، وهي كما عرفها الإمام الزركشي : أن يكون للشئ صفة ثابتة ، فتزيد في التعريف بمقدار شدته أو ضعفه ، فيدعي له من الزيادة في تلك الصفة ما يستبعد عند السماع ، أو يحيل عقله ثبوته (6) . نحو قوله تعالى : {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } (سورة النور :40).

والمبالغة هنا : في تعدد الظلمات وكثرتها فهي هنا ظلمة البحر ،وظلمة الموج فوقه ، وظلمة السحاب فوق الموج .

هذا نزر يسير مما تطرقنا إليه في ذكرالنماذج وإلا فإن أنواع الإعجاز البلاغي وأقسامه وصنوفه وأبوابه وأنماطه وأساليبه متعددة وكثيرة جدا لا يمكن إحصاؤها ولاعدها ولا جمعها في موطن واحد (7).

اختلاف العلماء في أوجه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم :

لا شك أن القرآن الكريم بأساليبه البلاغية المعجزة قد بهر العرب وألجمهم وأعجزهم ، وقد دعاهم الله إلى التفكر في القرآن واستنتاج الغاية العظمى والمقصد النبيل والهدف المنشود من نزوله فقال عز من قائل: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} (سورة النساء :82). وهذا الاختلاف الذي يشير إليه القرآن عام في جميع علوم القرآن وخطابه ومحتوياته وليس المقصود به قطعا اختلاف القراءات المتواترة المشهورة ولا تعدد الأوجه البلاغية ، وأما ما يذهب إليه العلماء من بيان أوجه بلاغية تكون مخالفة بعضها لبعض فإن ذلك مما لا يخفى أنه يدخل تحت إطار تعدد الأوجه البلاغية في الآية الواحدة والاسلوب الواحد فيكون الأسلوب الواحد حينئذ يحتمل وجوها بلاغية متعددة لا تعارض بعضها البعض بل كل وجه بلاغي له دلالته وفحواه ، وهذا كله داخل في إعجاز القرآن لا يخرج منه بأي وجه .

أثر هذا الاختلاف :

إن لهذا الخلاف تأثير ولا شك على عقول العامة من الناس وبعض طلبة العلم المبتدئين في الميدان ، إلا أن من يتضلع في هذا العلم ويخوض غمار هذا الميدان فإن الأمر بالنسبة إليه مجرد تعدد الوجوه فحسب لا غير ، وإذا كان الأمر متعلقا بالقارئ ولي بالمقروء فإننا نقول أن الأوجه البلاغية ليس لها أي تأثير في متن القرآن ونصه ولا في معناه ومفهومه ، بل الأمر يخص علم البلاغة والإعجاز، قال تعالى :{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } (سورة الحشر:21).

الهوامش

(1)- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر الطبري : 429/23 ، تفسير سورةالمدثر عند تفسير الآيات : 18-25. ط : دار عالم الكتب بيروت

(2) – دلائل النبوة للبيهقي :198/2.

(3)– سنن أبي داود ، برقم : 4604.

(4)– راجع للتفصيل : الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ، والبرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي .

(5)- منها : زيادة التنبيه ،و إعادة الكلام لبعد العهد وخشية التناسي ، والتعظيم والتهويل ، والوعيد والتهديد ، التحدي ، وما إلى ذلك .

(6)- البرهان في علوم القرآن : 57/3.

(7)- اكتفينا بهذا القدر ولم نغفل أو نهمش من بقية أنواع الإعجاز البلاغي ، ومن عظيم أبواب هذا العلم الذي أدرجناها ههنا هي أقسام أسلوب الإطناب ، ويواجهه أسلوب الحذف وله أيضا أقسام عدة، والتقديم والتأخير وله أيضا أقسام عدة ، والقلب وله أيضا أقسام عدة .